النسيج القبطى

أولاً: الخامات المستخدمة فى صناعة النسيج:

تعددت الخامات التى استخدمها الفنان القبطى فى صناعة منسوجاته ومن أشهر تلك الخامات:

أ) الكتان: يعتبر الكتان من أكثر الخامات المستخدمة فى صناعة النسيج القبطىّ فهو يتميز بقوة احتماله وامتصاصه للرطوبة وعزله للحرارة. ولذلك فإنه أنسب كساء للإنسان فى الجو الحار الرطب. ومما يدل على أهمية الكتان ما يذكره دقلديانوس فى قائمة أسعاره من أن كتان الإسكندرية يعد من أفضل خمسة أنواع من الكتان فى الإمبراطورية بأسرها. فعلى الرغم من جودة الكتان المصرى منذ القدم إلا أنه كان يتميز فى هذه الفترة بأنه أدق خيطاً وأحسن صنعاً. واستخدم الكتان بلونه الطبيعى أو مع شئ بسيط من التبييض.

ب) الصوف: لم يكن الصوف ذو مكانة مهمة لدى قدماء المصريين فهو وإن كان معروفاً ومستخدماً إلا أن ذلك تم فى أضيق نطاق بسبب المعتقدات الدينية التى ترى أن الصوف غير طاهر لاقترانه بعمليات السلخ الحيوانى. ولذلك كان يحتل مرتبة ثانوية عند المصريين القدماء. وبمرور الوقت تغيرت النظرة إلى الصوف واحتل مرتبة هامة بين الخامات المستخدمة فى صناعات النسيج فى المراحل التالية وأصبح مصدراً اقتصادياً هاماً وصدر إلى أسواق الشرق الأقصى فى العصر البيزنطى. استعمل الصوف غالباً من أجل الزخرفة فكان الفنان يصنع الزخارف على القمصان والعباءات من الخيوط الصوفية متعددة الألوان وكان أسلوبه فى ذلك إما بنسج الزخارف مع الرداء أو نسجها منفصلة ثم تخاط على الرداء. أما الملابس المصنوعة بأكملها من الصوف فكانت نادرة وما وجد منها يرجع إلى فترات متأخرة. وعلى الرغم من أن هناك اعتقاد بأن الملابس الصوفية صنعت فى مصر العليا، فإن ارتفاع درجة الحرارة فى هذه المناطق تجعلنا نعتقد أن هذه المدن كانت مجرد مكان

للصناعة فقط وأن منتجاتها كانت ترسل إلى أماكن أخرى.

ج) الحرير: كان استخدام الحرير على نطاق ضيق للغاية ويرجع ذلك إلى ارتفاع ثمنه فرطل الحرير كان يساوى رطل الذهب فى الثمن هذا إلى جانب القيود الأخرى التى فرضت على استخدامه فقد كان يعتبر منافياً للرجولة. وقد ندد آباء الكنيسة بالرفاهية التى وفدت على الإمبراطورية مع استخدام الحرير فى البلاط. واقتصر استخدام الحرير على أجزاء صغيرة تعلق على القمصان والعباءات. وقد وجدت فى أخميم مقبرة تحتوى على بعض المومياوات التى كانت أكفانها من الحرير وترجع إلى القرن الرابع الميلادى تقريباً.

ثانياً: صباغة وطباعة المنسوجات القبطية:

استخدم الفنان القبطى الطريقة التى استخدمها أجداده المصريون فى صباغة المنسوجات فقد ورث المهارة فى تكوين الصبغات الطبيعية المختلفة التى كان من أهمها النيلة وقشر الرمان والصبغات الأخرى الموجودة فى الطبيعة. كذلك فإنه كان يستخدم الشمع والصلصال فى تحديد الأماكن التى لا يريد صباغتها وكان يستخدم الأحماض فى تثبيت الألوان. كذلك فإنه استخدم الأملاح المختلفة فى الحصول على تأثيرات متفاوتة من اللون الواحد الأمر الذى يوضح مدى خبرته فى هذا المجال. وقد استخدم الأقباط المصريون القوالب الخشبية فى طباعة المنسوجات الكتانية.

وهناك العديد من القطع المزخرفة عن طريق الطباعة والتى تحمل زخارف مختلفة من قبيل الأشكال الهندسية والرموز المسيحية وبعض مشاهد القصص الدينى.

ثالثاً: مراكز صناعة النسيج القبطى:

على الرغم من أن صناعة النسيج كانت فى أساسها صناعة منزلية تمارسها السيدات فى المنازل والرهبان فى الأديرة إلا أنها انتشرت فى أنحاء مصر كحرفة يمارسها

الكثير من العمال المهرة ووجدت بعض المراكز والمدن التى اشتهرت بصناعة النسيج بكميات كبيرة وبأنواع متميزة. ومن أهم تلك المراكز:

١ – مدينة بانوبوليس (أخميم):

تقع هذه المدينة على الضفة الشرقية للنيل قبالة سوهاج تقريباً. وعرفت فى العصر الفرعونى باسم "خم" ومن هذا الاسم استمد الأقباط الاسم الذى أطلقوه عليها "خمين" ومنه أيضاً اكتسبت اسمها الحديث الذى أطلقه عليها العرب وهو أخميم. أما اسمها الإغريقى بانوبوليس فقد استمد من اسم الإله "بان" الذى يماثل إله المدينة الفرعونى الإله "مين" رب الخصوبة وحامى القوافل.

اشتهرت أخميم بصناعة المنسوجات الكتانية واستمر ازدهار هذه الصناعة فيها حتى القرن العاشر الميلادى تقريباً.

٢ – مدينة أنتينوبوليس (الشيخ عبادة):

نشأت هذه المدينة القرن الثانى الميلادى ويقال إن هادريان قد بناها فى الموقع الذى غرق فيه غلامه أنتينوس وهى تقع على الضفة الشرقية للنيل بالقرب من الأشمونين. احتلت مدينة أنتينوبوليس مكانة كبيرة بين المدن الغنية فى مصر فقد كانت تتميز بوفرة المال فيها وانتشار الثقافة بين جنباتها. وقد ضمت أعداداً كبيرة من موظفى الحكومة من ذوى المراكز الهامة. واشتهرت المدينة بوجود عدد كبير من مصانع النسيج بها. وقد ظلت هذه المصانع تنتج أنواعاً مختلفة من المنسوجات طوال العصرين الرومانى والبيزنطى. وترجع أغلب قطع مجموعة متحف الإسكندرية اليونانى والرومانى إلى هذه المدينة. واهتم المؤرخون المسلمون بالمدينة نظراً لارتباط إحدى قراها وهى قرية "حفن" بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حيث إن تلك القرية كانت موطن ماريا القبطيه التى أهداها إليه المقوقس حاكم مصر وكان من بين الهدايا التى حملتها ماريا معها عشرون ثوباً من المنسوجات التى اشتهرت بها مصانع أنتينوبوليس، وهى الثياب المعروفة بالقباطى.

٣ – مدينة هيرموبوليس (الأشمونين):

لازالت أطلال هذه المدينة ماثلة للعيان بالقرب من مدينة الأشمونين الواقعة على مبعدة أحد عشر كيلومتراً شمال غرب ملاوى. وكان اسم هذه المدينة فى العصر الفرعونى هى "خمنو" وهو الاسم المقدس لها والذى يعد أصل تسميتها القبطية والعربية "شمنو". وأسماها الإغريق هيرموبوليس نسبة إلى الإله هيرميس جرياً على العادة اليونانية فى قرن الآلهة المصرية بالآلهة اليونانية حيث إن إله المدينة فى العصر الفرعونى كان الإله تحوت رب العلم والمعرفة.

ضمت هيرموبوليس الكثير من مصانع النسيج ومن أشهر قراها قرية "باويط" التى كانت لها مكانة عالية فى صناعة المنسوجات الكتانية.

٤ – مدينة أوكسيرينخوس (البهنسا):

تمثل هذه المدينة مركزاً من مراكز الحضارة المصرية القديمة إذ تمتد أصولها إلى العصر الفرعونى حيث كانت تسمى "بيمازيت" غير أن اسمها تغير فى العصر البطلمى إلى أوكسيرينخوس نسبة إلى نوع من الأسماك كان يكثر فى تلك المدينة ويقدسه أهلها. زادت أهمية أوكسيرينخوس فى العصر البيزنطى حيث سكنها الكثير من الرهبان الذين اشتهروا بالزهد كما اشتهرت المدينة بصناعة النسيج وأنتجت مصانعها العديد من الأردية ممتازة الصنع.

٥ – مدينة الإسكندرية:

على الرغم من عدم ذيوع شهرة الإسكندرية كمدينة منتجة للنسيج إلا أن ذلك لا ينفى أنها كانت تضم عدداً من المصانع التى أنتجت أنواعاً مختلفة من المنسوجات وإن كانت كمية المنسوجات التى تصنع فيها أقل من غيرها من المراكز الصناعية الأخرى. ومما لا شك فيه أن طبيعة التربة فى الإسكندرية التى ترتفع نسبة الرطوبة بها لم تساعدنا على العثور على أى قطع من الملابس شأنها فى ذلك شأن بقية مدن الوجه البحرى.

رابعاً: مصانع النسيج والحرفيون:

انتشرت مصانع النسيج فى أنحاء مصر وتنوعت ما بين مصانع صغيرة وأخرى كبيرة، ومصانع تملكها الدولة وأخرى يملكها الأفراد.

ومن بين المصانع الحكومية كان هناك مصنع يهتم بإنتاج النسيج الذى يحتاجه القصر الإمبراطورى وأفراد الحاشية أى كان هناك جزء من إنتاج البلاد يذهب إلى الخارج كما أن الحكومة كانت تمتلك أيضاً عدداً من المصانع التى تمدها باحتياجاتها من ملابس الجنود.

ولم يمنع امتلاك الحكومة لتلك المصانع من وجود مصانع أخرى مملوكة للأفراد فقد قام بعض كبار التجار بإنشاء عدد من المصانع فى دورهم استخدموا فيها عدداً من عمال المصانع الحكومية فى غير أوقات عملهم الرسمية. ولعبت هذه المصانع الأهلية دوراً هاماً فى إمداد الدولة بما تحتاجه من ملابس خاصة بالجنود على شكل ضريبة نوعية وكانت مصر قد عرفت هذا النوع من الضرائب فى العصور السابقة كما نجحت هذه المصانع فى تحقيق الاكتفاء فى السوق المحلية.

انتظم العمال الحرفيون فى نقابات ضمت فيما ضمت من العمال الحرفيين الذين كانوا يقومون بأعمال ترتبط بصناعة النسيج من أمثال المطرزين والصباغين وغيرهم. وكانت هذه النقابات مسؤولة عن سد حاجات الحكومة من المنسوجات ومسؤولة كذلك عن تأدية الضرائب المفروضة على الأعضاء. وكان الحرفى الذى لا يستطيع شراء نول ينسج عليه يقوم باستئجار أحد الأنوال ليعمل عليه مقابل أجر محدد لصاحب النول. وكان الآباء يرسلون أبناءهم من الصبية لتعلم حرفة النسيج. وغالباً ما كان يكتب عقد بين ولى أمر الصبى وبين المعلم يحدد فيه ما سيتقاضاه الصبى طوال فترة التدريب من راتب. وهناك إحدى البرديات التى تشير إلى أن الصبى كان يحصل فى السنة الأولى على ثمانى دراخمات وفى السنة الثانية كان المبلغ يزداد إلى اثنتى عشرة دراخمة وفى الثالثة يحصل على ست عشرة دراخمة أما فى الرابعة والأخيرة فكان راتب الصبى يصل إلى عشرين دراخمة. وإلى جانب تلك النقود كان من حق الصبى تحت التدريب أن يحصل على مبلغ من المال لطعامه كما كان من حقه الحصول على ثمانية عشر يوماً إجازة فى العام هى فى الغالب أيام الأعياد. وشاركت النساء الرجال فى التدرب على مهنة النسيج فقد ذكرت إحدى البرديات أن سيدة أرسلت جاريتها لتعلم حرفة النسيج لمدة

أربعة أعوام وتعهدت أنه فى حالة مرض الجارية أن تبقى فى التدريب مدة مساوية للمدة التى تغيبتها وأنها ستقوم فى خلال الفترة المحددة بإطعام وكسوة الفتاة. ويدل العقد المبرم بين السيدة والحرفى الذى تولى تعليم الصبية أن الفتاة كانت تتقاضى أجراً مساوياً لأجر الصبى بلا نقصان. أى أنه لم يكن هناك أى فرق فى المعاملة بين الجنسين.

خامساً: طرق صناعة النسيج:

تنوعت الطرق الفنية التطبيقية المستخدمة فى صناعة النسيج فى مصر واستمرت دون انقطاع منذ العصر الفرعونى وحتى الفتح الإسلامى. ومع ازدياد خبرة النساج فى الصناعة قام باستحداث طرق فنية أكثر تطوراً وإتقاناً وإن كانت تعتمد فى أساسها على طريقة واحدة تعتبر من أبسط الطرق للحصول على قطعة نسيج مصنوعة على نول يدوى. وتتلخص هذه الطريقة فى أن يقوم الصانع بفرد خيوط السداة على عارضة خشبية موازية لبعضها تماماً. مقسماً إياها إلى قسمين: خيوط فردية وأخرى زوجية تنفصل عن بعضها البعض ومخلفة فتحة تعرف باسم فتحة النفس. وكان المكوك يمرر من خلالها خيوط اللحمة حيث تعود الفتحة إلى الانغلاق مرة أخرى بعد ذلك. ونتيجة لهذه العملية كان يحدث تقاطع بين خيوط السداة وخيوط اللحمة وكانت عملية التقاطع هذه تؤدى إلى اختفاء مجموعة من خيوط السداة ولتكن الخيوط الفردية تحت اللحمات وإلى ظهور الخيوط الأخرى الزوجية وبالعكس فى حالة تمرير اللحمة التالية حيث تختفى الخيوط الزوجية وتظهر الخيوط الفردية. وهذه العملية تؤدى إلى إنتاج أبسط أنواع النسيج أو هى نقطة الانطلاق التى يبدأ منها الصانع عمله ويضيف عليها ويبتكر تبعاً لمهاراته وخبراته الفنية. ونتيجة لهذه الإضافات ظهرت أنواع عدة من الطرق الفنية الخاصة بصناعة النسيج ومنها النسيج السادة وهو نسيج بسيط ونسيج الزخرفة المنسوجة المعروف باسم نسيج القباطى والنسيج الوبرى ونسيج اللحمة الزائدة وكذلك النسيج ذو الوجهين.